

أدب السجون لا ينفصل عن الأدب العربي



الروائي الأسير المحرر رأفت حمدونة

إبداعات فلسطينية في السجون الاسرائيلية :- صادرة عن مركز الأسرى للدراسات :

الأدب أحد أشكال التعبير الإنساني عن مجمل عواطف و أفكار و خواطر و هواجس الإنسان بأرقى الأساليب الكتابية التي تتنوع من النثر ، إلى النثر المنظوم ، إلى الشعر الموزون ، لتفتح للإنسان أبواب القدرة للتعبير عما لا يمكن أن يعبر عنه بأسلوب آخر [1].

وأدب السجون والمعقلات في فلسطين جزء لا يتجزأ من الأدب العربي ، الذي يتطلع للحرية ، وهو من أصدق أنواع الكتابة ، سواء كان ذلك على مستوى النثر أو على مستوى الشعر ، واختلفت التسميات حول النتاج الأدبي في باستيالات العدو ، فذهب البعض لتسميته " بأدب الحرية " ، أو "بالأدب الاعتقالي" ، وحرص آخرون على صبغه بمفاهيم إيديولوجية، فأطلقوا عليه " الأدب الأسير" ، وذهب آخرون إلى تسميته "بأدب السجون" ، ولكن الجميع مجمعون على أنه يندرج تحت عنوان: "الأدب الفلسطيني المقاوم" [2].

وأدب السجون لم يكتب في الصالونات المكيفة ، أو في الحياة المرفهة ، أو بين الورود ، و البساتين التي تصدح في سماءها الطيور المغردة ، بل كتب في أجواء من الألم والأمل ، وفي ظل المعاناة والصبر والتأمل داخل محرقة العدو [3] ، بين الجدران ، ومن خلف القضبان ، وثمة فرق بين من يكتبون في الصالونات ومن يكتبون في المعتقلات ، ففي الحالة الأولى يأتي أديهم عادياً ، أما في الحالة الثانية، فيضئ أديهم بإشراقات جمالية، تضفي حياة روحية متوقّدة، حيث أن المعاناة والألم مصدرراً وحاضنة دافئة للعطاء والإبداع، المشع على طريق الحق والخير والجمال، حيث تنفجر الطاقات الإبداعية من خلال ممارسات القمع اليومية للسجان في أقبية السجون، التي شكلت تربة خصبة لتفتح هذا الإبداع [4].

في هذه الدراسة سيتطرق الكاتب لأدب السجون وتفصيلاته ، نشأته وعوامل ظهوره ، وظروفه ومميزاته ، وسماته الجمالية ، وأبرز التجارب الأدبية ، والكتابات الإبداعية من الشعر والنثر والرواية والقصة والخاطرة و المسرحية والرسالة .

أولاً ، تعريف أدب السجون :

هنالك الكثير من الأدباء ممن اجتهدوا في تعريف " أدب السجون " ، وجميعها متشابهة في مضمونها وأصولها ، ومختلفة قليلاً على الحدود والمساحات ، والأجناس و التصنيفات .

رئيس اتحاد الكتاب الفلسطينيين الروائي ابراهيم الزنط " المعروف بغريب عسقلاني ، والدكتور الأديب والناقد والمحاضر في الجامعة الاسلامية عبد الخالق العف توافقوا على أن " أدب السجون " هو الذي يكتبه الأسرى في المعتقلات ، ويستوفى الحد الأدنى من الشروط ، وأضاف الأديب الزنط أن ما يكتب عن السجون والأسرى خارج السجن من غير الأسرى أو من المحررين لا يُعد أدب سجون ، وممكن تسميته " أدب عن السجون " .

الأسير المحرر الأديب والروائي شعبان حسونة تطرق لثلاث مدارس في تعريف أدب السجون ، الأول : هو ما يكتب في الأسر و يهتم بقضايا السجن ، وهنا يتم استثناء الأدب العاطفي و البوليسي وغيره من الأنواع التي تكتب في الأسر .

الثاني : هو كل ما يكتب في الأسر ، وهنا يتم استثناء ما كتب عن الأسر من غير الأسرى كرواية شرق المتوسط لعبد الرحمن منيف وغيره .

الثالث : هو كل ما يكتب عن السجون وكل ما يكتب بأقلام الأسرى ، ويميل الروائي حسونة إلى هذا التعريف ، على أن يستوفى الشروط في كتابة الرواية ، والقصة ، والقصة القصيرة ، والقصة القصيرة جداً ، والشعر العمودي ، وشعر التفعيلة ، والشعر المنثور ، واختلف المختصون بشمل الخاطرة ، والرسالة ، والمقال في هذا الإطار [5].

الأديب الأسير المحرر د . فايز أبو شمالة أن أدب السجون هو كل ما له علاقة بالوجدان والعاطفة الإنسانية والتعبير عن ذلك فنياً ، وهذا يشمل القصة والرواية والشعر والخطبة والأغنية والعمل المسرحي ، ويتكون من شقين ، شق يتعلق بالسجناء أنفسهم ، وما كتبوه هم من داخل غرف السجن ، وما وثقوه أثناء وجودهم في السجن وحتى بعد خروجهم منه ، فالتجربة قائمة ، وتنعكس في التعبير لسنوات طويلة الأمد ، وشق يتعلق بما عبر عنه الأدباء خارج السجن ، ولاسيما أولئك الذين تخيلوا حياة السجن ، واستمعوا لها ، وعاشوا بوجدانهم تجربة السجناء ، وراحوا يعبرون عنها بصياغتهم الخاصة ، وأسلوبهم القادر على تصور حياة السجن ، والتعبير عنها بشكل فني [6] .

الأديب والروائي الأسير المحرر وليد الهودلى عرف أدب السجون بما يكتبه الأسرى في داخل الأسر ، أو ما كتبه الأسرى من مذكرات بعد التحرر ، أو ما كتب عنهم وعن السجون من غيرهم ، في مجالات الرواية ، والقصة ، والشعر ، والمسرحية ، والخطبة ، وألوان الأدب الأخرى ، ولا يشمل أدب السجون إنتاجات الأسرى من الدراسات والأبحاث والكتب في مجالات من غير الإنتاج الأدبي [7].

الأديب والباحث الأسير المحرر سلمان جاد الله " أبو سليم " يعرف أدب السجون بالذي يكتبه الأسرى داخل السجون ، ويشمل الرواية ، والقصة ، والشعر ، والمسرحية ، والزجل ، وحتى اللوحات الفنية ، وأدب السجون لا يشمل المقالات السياسية والتاريخ ، ويمكن أن يطلق عليها أدبيات الفصائل [8].

الأسير المحرر والأديب الدكتور خضر محجز عرف الإنتاج الأدبي بما يكتبه الأسرى خلال اعتقالهم ، حتى لو لم يكن عن السجن ، و أدب السجون هو كل إنتاج لغوي كتب في السجون ، واتخذ الأسلوب الجميل وسيلة لإيصال محتوى ما ، كالشعر والقصة والرواية والمسرحية والنقد الأدبي ، والخطبة الأدبية [9] .

ويرى الباحث كأسير وروائي ، إستناداً للتعريفات السابقة ، أن " أدب السجون " هو امتداد للأدب العربي لما يحمل من مميزات وخصائص ، وحس إنساني وعاطفي ، ورقة مشاعر وأحاسيس ومصداقية ، وقدرة على التعبير والتأثير ، وأن " أدب السجون " كل ما كتبه الأسرى عن السجن وغيره داخل الإعتقال وليس خارجه ، بشرط أن يكون من أجناس الأدب كالرواية والقصة والشعر والنثر والخاطرة والمسرحية والرسالة ، ويفرق الباحث بين " أدب السجون " المستوفى للشروط الأدبية ، وبين " أدبيات وإنتاجات الأسرى الأخرى " التي كتبها داخل الاعتقال ، كالدراسات السياسية ، والأبحاث التاريخية والأمنية والفكرية ، والكتب في مجالات متنوعة ، والترجمات من الصحف الإسرائيلية وغير ذلك من المجالات .

ثانياً ، تاريخ أدب السجون :

أن نكتب عن الأسر والسجن في الأدب الفلسطيني، يعني أن نبدأ ولو باختصار شديد بتاريخ أدب السجون ، خاصة وأن الأدب فضاء رحب للحرية والانطلاق ، لذلك فهو يأبى القيود والأصفاد والأغلال ، إنه عشق وشوق وتطلع ، رغم كل ألوان المعاناة اليومية الملازمة له ، حيث يظل السجين على أمل اللقاء مع الأهل والأحبة .

لقد آمدنا التاريخ العربي بذاكرة خصبه أتراها عشرات بل مئات الشعراء الذين أسبروا ، وكتبوا قصائدهم في غياهب السجون ، كأبي فراس الحمداني ، والمتنبي ، وناظم الغزالي [10] ، وعبد الرحمن منيف ورواياته المشهورة عن السجون " شرق المتوسط " و" الآن هنا " ، ويحيى الشيخ صالح في أدب السجون ، والمنافى في فترة الإحتلال الفرنسي ، وشعر السجون لسالم معروف المعوش ، ورواية خطوات في الليل لمحمد الحسناوي وآخرين . كما يجدر التنويه أن أدب السجون ليس حكراً على الفلسطينيين والعرب فقط ، بل هناك آخرون كتبوا داخل الاعتقال كالشاعر التركي ناظم حكمت ، وشاعر تشيلي العظيم بابلو نيرودا ، والروائي الروسي ديستوفسكي في روايته " منزل الأموات " [11] وآخرون كثر ممن كانوا تحت الإحتلال واعتقلوا .

ثالثاً ، العوامل التي ساعدت في ظهور أدب السجون الفلسطيني :

وصف أ. د. صادق أبو سليمان [12] " أدب السجون " بما يصوغه الكاتب الأسير في السجون وهو يحيا في مكان بئس لا يوفر لساكنه إلا أبسط المتطلبات التي تحفظ له حياته ، والذي يخرج من محبسين: محبس السجن، ومحبس معاناة الأديب الذي ينسج التجربة الأدبية كلمات وجملأً وصوراً بديعة مفعمة بحيوية الإنفعال، وصدق التجربة والمشاعر ؛ والأديب الأسير الذي ينهل من مصدر المعاناة في سبيل الحرية [13].

و"أدب السجون" فرض نفسه كظاهرة أدبية في الأدب الفلسطيني الحديث، وبرز قبل احتلال الخامس من حزيران/ يونيو 1967م ، فالشعراء الفلسطينيون الكبار محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد [14]، أثروا الساحة الأدبية بهذا الأدب المقاوم، ولعل أبرز سماته تتمثل في التمسك بالأرض، والتغني بالحرية، وحب الوطن، والالتزام والصدق المقاوم، الذي تجلى في نصوصهم، فأطلق عليهم: رواد شعراء المقاومة الفلسطينية ، الذي اتسم بالبعد العربي والبعد العالمي كقصيدة : " الثوار ينشدون" ، لراشد حسين، و"أنا عبد" لفوزي الأسمر، موجهة لشعب إفريقيا، ولسميح القاسم عدة قصائد عن باتريس لومومبا، وإفريقيا، وزنوج أمريكا، ومقطع اسمه بطاقات إلى ميادين المعركة ، وهي سلسلة من القصائد القصيرة موجهة إلى المغني الزنجي بول روبنسون، وفيدل كاسترو، وكريستوف غبانيا، وثوار الفيتكونغ ، ولعل أبرزها قصيدة محمود درويش " عن الأمنيات" [15].

وهناك عدة عوامل ساعدت على الكتابة الأدبية لدى الأسرى وأهمها :

1- دخول الكتب الأدبية للسجون في العام 1972 ، وتوافرها في نهاية السبعينيات ، والتي مثلت العصر الذهبي للأسرى على الصعيد الثقافي بشكل عام ، والطفرة الأدبية الإعتقالية بالشكل الخاص ، " في هذه المرحلة ازدهرت القراءات الأدبية لتشمل طيفاً واسعاً من الأدباء على مستوى العالم ، ابتداءً من غسان كنفاني واميل حبيبي في مجال الرواية ، مروراً بنجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وطه حسين والطيب صالح ، وانتقاله تولستوى ، وديستوفسكى وتورجنيف ومكسيم جوركى ، وكتاب الأدب السوفيتي اللاحقين ، والعودة إلى شكسبير وتشارلز ديكنز وفيكتهوجو في أوروبا ، والانطلاق نحو الأدب الأمريكي وخصوصاً أدب جون جونسون شتاينيك ، وارنست همنجواي ، وكتاب آخرين من قوميات وتجارب وأجناس مختلفة في مجال الرواية والقصة والشعر والمسرح ، والتي شكلت جامعاً ممتعاً ومصدراً غزيراً للمعارف والاستمتاع [16] " .

2- تنامي قوة الحركة الوطنية الأسيرة ، وتطور أساليب الإسناد الجماهيري لها ، ما أدى إلى لجم شراسة القمع الجسدي والفكري ، وخفف من حدة القهر الممارس ضد الأسرى .

3- التلغز واضطرار إدارة السجن إلى السماح بإدخاله في غرف السجن ، ما أتاح للمعتقلين للاطلاع على العالم الخارجي من خلال الإطلاع على بعض البرامج الأدبية والفنية في الفضائيات العربية التي سمحت بها إدارة مصلحة السجون ، ثم عادت ومنعت بعضها ضمن سياسة التضييق .

4- دور المجلات والنشرات والصحف التي كان يصدرها المعتقلون ، واهتمامهم بنشر النصوص الأدبية والقصائد الشعرية في مجلات أدبية خاصة " كصدى نفحة ، والصمود الأدبي .

5- نشر أعمال بعض المعتقلين خارج أسوار السجن بعد تهريبها بطرق مختلفة [17] . ويرى الباحث أن تطلع الأسير للحرية ، وملء الوقت بالاهتمامات الثقافية وخاصة الأدبية ، التي تحمل الأسير نحو الأفق الواسع والممتد بلا نهايات ، وتحلق بروحه نحو الفضاءات الرحبة ، والخيالات اللامحدودة ، والتي تمثل تحدياً لمشروع السجن الساعي لحصر جسده وروحه في أمتار بل سنتيمترات معدودة ليبقى معتقل الظروف والسياسات والإحساس بالمعاناة والعذابات ، كانت عوامل معنوية للعيش في كنف الحياة وصناعتها من لا شيء ، ولا يمكن استبعاد عامل التحفيز والتشجيع والمنافسة من قبل المؤسسات الفلسطينية والعربية والدولية بقضايا الأسرى ، وأهمها جائزة الحرية السنوية التي تعلن عنها هيئة شؤون الأسرى والمحررين في مجال " الرواية والقصة والفيلم والبوستر والأغنية " ، والتي شجعت الأسرى على المشاركة فيها ، في ظل سهولة التواصل مع الخارج مع تهريب الهواتف النقال التي سهلت تصوير ونقل أدبيات الأسرى لكل مكان ، ولعل من أبرز الأجناس الأدبية التي اهتم بها الأسرى في السجون :

1- المجلات الأدبية :

اهتم الأسرى بأدب السجون ، وشجعوا الكتاب والأدباء من خلال إنشاء عدد من المجلات الأدبية ، إضافة إلى المجلات الثقافية العامة كنفحة الثورة التي خصصت صفحات أو ملاحق أدبية ، ومن أبرز المجلات الأدبية :

1- **الصمود الأدبي** : والتي صدرت في سجن عسقلان في العام 1986 ، وقد أسسها وأشرف عليها الأسرى " سلمان جاد الله ، رياض حلس ، وشاركهما محمد التلوي " ، وقد أثار ردود فعل جيدة ، وترصعت صفحاتها بكتابات الشهيد عمر القاسم وبملاحظاته النقدية .

2- **صدى نفحة** : والتي صدرت في سجن نفحة في العام 1989 ، كنشرة أدبية ، بعد ترحيله إليه ، ووجهت بالترحيب من قبل اللجنة الثقافية الوطنية ، واعتبرتها بعد شهرين من صدورها مجلة وطنية تعنى بشؤون الأدب ، وكان من أبرز من شاركوا في تحريرها بالإضافة إلى مؤسسها الأسيرين " معاذ الحنفي ، وفايز أبو شمالة [18].

3- **مجلة "الهدف الأدبي"** : في معتقل عسقلان، والتي صدرت عام 1981م، وأشرف على تحريرها كل من: منصور ثابت، وعبد الحميد الشطلي، ومحمود عفانة .

4- **مجلة "إبداع نفحة"** : والتي صدرت عن اللجنة الثقافية الوطنية في معتقل نفحة، وأشرف على تحريرها كل من: فايز أبو شمالة، وسلمان جاد الله، ومعاذ الحنفي، ومحمود الغرباوي.

5- **مجلة "النهضة"** : حطمت قمم الفئوية التنظيمية ، وخرجت بثوب وطني عام بدءاً بهيئة تحريرها ، مروراً بموادها وانتهاءً بتوزيعها والإقبال علي قراءتها ، والتي عكست الأبعاد الحقيقية للتغيرات الكيفية التي أصبح عليها العامل الذاتي في أوساط المعتقلين والتي انسجمت بدرجة نضجها مع نضج العامل الموضوعي دائم الحضور [19].

و عمل الأسرى بشكل جدي في الثمانينيات من القرن العشرين، على تهريب نتاجهم الأدبي خارج الأسر، واهتمت الصحف والمجلات الفلسطينية والعربية والعالمية، بنشر نتاجهم، وكان من أهم الصحف والمجلات التي نشرت أعمالهم الإبداعية: البيادر الأدبي، والشراع، والكاتب، والفجر الأدبي. كما عملت دور النشر والمؤسسات الثقافية والحزبية على نشر إبداعات المعتقلين في كتب، مثل: اتحاد الكتاب والأدباء الفلسطينيين، ودار القسط للنشر، ودار الآباء والبنون للنشر، ودار الزهراء، ومركز التراث في الطيبة، وغيرها [20].

2- شعر الأسرى :

يشكل شعر الأسرى الفلسطينيين ، أنموذجاً هاماً من نماذج شعر المقاومة ، وذلك لأن معظم أدباء فلسطين وشعرائهم سواء من داخل الأراضي المحتلة في العام 1948 ، أم من الأراضي المحتلة في العام 1967 ، دخلوا السجون والمعتقلات الإسرائيلية [21] ، ويتميز شعر المعتقلات بكونه مقاوماً ، جاء من أتون معركة ضارية بين الأسرى وبين إدارة قمع السجون بأجهزتها المختلفة، إزاء ذلك انبرى الشعراء ممن نضجت قرائحهم ، وتفجرت مواهبهم الشعرية ، ليقفوا في مقدمة المجابهة ؛ ليعبروا عما يختلج في نفوسهم من ألم وحزن وأسى .

وعليه فإننا لسنا أمام شعر باكٍ شاكٍ ضعيف حزين ، يرسل الدمع مدراراً ، وليس شعراً صاخباً يواجه واقعه بالصراخ ، بل نحن أمام شعر مقاوم ملتزم ، ولعل أبرز ما يلحظ في هذا الشعر وحدته الموضوعية ؛ إذ تتلاحم قصائد الشعراء الأسرى تلاحماً عضوياً ، كونه انطلق من ظروف واحدة ، وهدفه واحد ، ويمتاز أيضاً بكثرة استخدام الرمزية ، كوسيلة ناجعة تختصر المسافات للوصول إلى المعنى العميق في نمط موجز موح ، فإن هناك حاجة أمنية لهذا الشعر ؛ لأن القصيدة الصريحة تعدّ جرماً يعاقب عليها قانون الاحتلال الإسرائيلي ؛ لهذا السبب نجد الشاعر الأسير أكثر من غيره استخداماً للرمز ؛ هروباً من عقاب جلاديه ، وتضليلاً لمحاكمه العمياء .

وجاء هذا الشعر أيضاً موجزاً ، تعرض فيه المعاني المتدفقة في ألفاظ قليلة ، مع الإبانة والإفصاح عنها ، ويتسم شعر الأسرى بالسهولة والبساطة والوضوح ؛ فشعرهم نراه يجري مجرى الماء في النهر سلاسة وسهولة ويسراً وبساطة وعذوبة [22].

ولقد تميزت الأعمال الشعرية للأسرى الفلسطينيين بأنها الأغنى والأكثر شمولية وزخماً من حيث الكم والكيف بين تجارب الشعوب وحركات التحرر، ويعود ذلك إلى ارتباطها بالقضية الفلسطينية وتحرير فلسطين، وطبيعة الاحتلال الإسرائيلي للذين تعرضوا له .

وكان التعبير بالشعر البدايات الأولى في إبداع الأسرى ، فهو أسرع الأنواع الأدبية استجابة للتعبير عن المعاناة ، لهذا لجأ عشرات من الأسرى إلى المحاولات الشعرية التي تترجم مشاعرهم وتعبّر عن مكنونهم النفسي [23] ، فهو شعراً مغلفاً بالحلم الشفاف ، وجاءت العبارة فيه هائمة أثيرية [24] ، لذا فإن النفس تتعشق هذا الشعر وتحبه ، وتميل إليه ، لأنه يخاطب القلب والعقل ، وترتاح له النفوس ، وتنشرح له الصدور ، فكان الشاعر في هذا الشعر يتحدث عن نفسه ، وكان هذا الشعر جزء منه [25].

ولقد برز عدد كبير من الشعراء داخل المعتقلات كان أبرزهم " المتوكل طه ، ومحمود الغرباوى ، وعبد الناصر صالح ، عز الدين المناصرة ، ومحمود شريم ، وخليل توما ، ومحمد عليان ، وعمر خليل عمر ، ود. خضر محجز ، معاذ الحنفى ، ود. فايز أبو شمالة ، وسلمان الزريعي ، وسائد السويركى ، وعيسى قراقع ، ومحمد أبو جلاله ، وهشام أبو ضاحى ، والشهيد عمر القاسم ، وباسم الخندقجى ، وتوفيق زياد ، وراشد حسين ، وسامى الكيلانى ، وعلى الخليلي ، والشهيد د. عبد العزيز الرنتيسى ، والشهيد د. ابراهيم المقادمة ، ويحيى السنوار ، ومحمد طه ، وحمام الحسنيات ، وعلى عصفرة ، وعبد الناصر صالح ، ومحمد أبو اللبن ، ومرزوق بدوى ، والشهيد معين بسيسو ، وغيرهم الكثير .

3- الرواية والقصة :

الرواية هي فن سرد الأحداث والقصص، تضم الكثير من الشخصيات ، وتختلف انفعالاتها و صفاتها ، وهي أحسن و أجمل فنون الأدب النثري ، وتعتبر الأكثر حداثة في الشكل و المضمون، وتتميز بالتشويق في الأمور والمواضيع والقضايا المختلفة سواء أكانت أخلاقية أو اجتماعية أو فلسفية ، والقصة القصيرة : تمثل حدثاً واحداً، في وقت واحد، وزمان واحد، وهي حديثة العهد في الظهور [26] ، ولقد اهتم عدد كبير من الأسرى بكتابة الرواية في السجون ، ومن الأهمية بمكان أن يشار للتأريخ إلى رواية " وابور الكاز " كأول رواية في أدب السجون ، قد أنهى كتابتها الأسير محمد عليان في سجن الرملة 1976 ، وصفحاتها تزيد عن 110 صفحات ، تدور أحداثها حول الثورة ومخطوط الرواية موجودة لدى المؤلف [27].

الناقد والمحاضر في الجامعة الإسلامية د. عبد الخالق العف يعتبر بأن الرواية هي أكثر الأجناس الأدبية المعبرة عن حالة الاعتقال قياساً بالأجناس الأدبية الأخرى التي خرجت من رحم السجون ، ولقد برز عدد من كتاب الرواية من الأسرى ولعل أبرزهم الروائي الأديب وليد الهودلى الذي كتب عدد من الروايات أشهرها رواية ستائر العتمة " جزأين " و التي عالجت موضوع تجربة التحقيق والإعتقال وظروف السجن ، وقد طبع الجزء الأول منها ثمانى طبعات ، أربعون ألف نسخة ، والتي لم يسبق لرواية فلسطينية من داخل السجون وخارجها أن تنشر بهذا الكم ، وتم تحويلها إلى فيلم في العام 2015 ، والروائي الأديب شعبان حسونة الذى كتب مجموعة من القصص القصيرة باسم " أمسية سجين " وعدد من الروايات أشهرها " ظل الغيمة السوداء ، وعلى جناح الدم " التي منحتها عضوية اتحاد الكتاب الفلسطينيين في العام 2005 ، والروائي الأسير المحرر رأفت حمدونة الذى كتب مجموعة " الرباعية الوطنية " والتي تضم أربع روايات هي عاشق من جنين ، ولن يموت الحلم ، وقلبي والمخيم ، والشتات ، التي طبعت طبعتين ، وقد وصفها الأستاذ الدكتور صادق أبو سليمان بـ" رباعية العشق " كونها تذكر - بلا ريب- بأدب الأديباء الثوار ، الذين خاضوا تجارب الثورة والنضال والمعاناة والحرمان والتعذيب ، وإذا ما هممت بقراءتها واحدة بعد الأخرى سترى نفسك تعيش قصة الشعب الفلسطيني في العصر الحديث ، وبالجملة فإن الكاتب في رواياته الأربعة قد استطاع التعبير عن هموم شعبه المتنوعة، ومحطات نضاله المتسلسلة من خلال عناية واضحة بتسلسل الأجيال ، ويلمس كل قارئ

للرباعية بترابط أسلوب الكاتب ، ومناسبة لغته لمضامين رواياته ، كونها سجلت بقلم روائي بارع [28].

وهنالك العشرات ممن أبدعوا بكتابة الرواية في السجون أمثال : الأديب غريب عسقلاني ، وحافظ أبو عباية ومحمد البيروتى ، وحسن عبد الله ، وحمزة يونس ، ورمزى مرعى ، ود . خضر محجز ، وزاهر جبارين ، وجمعة التايه ، ومحمد و ابراهيم اغبارية ، وعماد الزين ، وسلمان جاد الله ، وعزت الغزاوى ، وعصمت منصور ، وفاضل يونس ، وموسى الشيخ ، ومحمد أبو صبحه ، ونواف العامر ، محمد عبالهادى ، ومحمود عيسى ، وجمال الهور ، وعلى عارفة ، محمد عبد الهادى ، ويوسف محمد ، أيمن فقيه ، وحسن سلامة ، وعمر حمش ، وكمال الأسطل ، محمد أيوب ، معاذ بلال ، ومؤيد الشيص ، وغيرهم الكثير .

ويستذكر الباحث عدد من الأسرى ممن دونوا تجاربهم الإعتقالية كمذكرات بشكل روائى متسلسل ، بأقلامهم أو بأقلام كتاب من غير الأسرى ممن أبدعوا في عرضها بشكل روائى ، كرواية " فرسان الحرية " لهشام عبد الرازق ، و فيروزيات نضالية ، والذي يتناول تجربة فيروز عرفة للدكتور سامى الأخرس ، ومروان البرغوثى ألف يوم في زنزانة العزل الانفرادى لزاوى وهبى ، وأحلام بالحرية للأسيرة عائشة عودة ، وأوراق من خلف جدران الأسر للأديب عبد الحق شحادة ، وأمير الظل للأسير عبد الله البرغوثى ، والهواء المقنع - أبو على شاهين 15 عام فى الاعتقال لمحمد القيسى ، وأيام من معتقل النقب للدكتور عبد الستار قاسم ، والقادم إلى خطفك للأسير محمد الشرايحة ، والخروج إلى المخيم لثابت مرداوى ، وتاريخ مشرق وذكريات مؤلمة ، ورحلة العودة للأسيرة المحررة للدكتورة مريم أبو دقة ، وذكريات مبعثرة من ذاكرة الأسر لاسماعيل دبح ، ونفحة يتحدث بعد ثلاثين عاماً لجبريل الرجوب ، وقصتي لسعيد الكرمى ، وذاكرة الأسير لعلى شواهنة ، ومذكرات عوض السلمى ، ومن صفحات نفحة للوى عبده ، وصرخة من أعماق الذاكرة تتناول تجربتى اعتقال فؤاد الرازم وأحمد أبو حصيرة ، ومذكرات محمود عارضة ، ويوسف العارف ، وغير ذلك من مذكرات على شكل روايات .

وأبدع عدد من الأسرى بكتابة القصة القصيرة كالقاص وليد الهودلى ، وشعبان حسونة ، واسماعيل دبح ، وحسن عبد الله ، وعصمت منصور وغيرهم الكثيرين .

4- المسرحية :

اهتم بعض الأسرى بالمسرحية فى نهاية السبعينيات ، ففى هذه المرحلة برزت محاولات لتأليف المسرحيات القصيرة ، والتي كانت تعرض فى الأمسيات الأسبوعية الترويحية ، أسهم فى ايجادها ونشطها انعدام وسائل التسلية ، والشعور بضرورة ايجاد وسائل ترفيهية تروحية تزيل التوتر وتقتل الرتابة ، وتشكل فى الوقت ذاته محاولة فنية لإعادة شحن الأسرى بالطاقة والنشاط لاستقبال أسبوع جيد ، كما جرى استغلالها لتعميق الوعي وتطوير المعرفة ومعالجة بعض القضايا الواقعية [29].

وكانت تمثل فى غرف زنازين بئر السبع التى كانت تتسع لسبعين أسيراً مسرحيات من بينها مسرحية " زنبقة الدم " التى تعالج حكاية فتاة جرى اغتصابها من دخلاء على الثورة فى القطاع ، وقد جرى تمثيلها على خشبة مسرح نصبوه من البطاطين [30] ، وقامت الأسيرات فى سجن " نفيه تريستا" بتقديم المسرحيات عرف منها مسرحية " فدائى جريح " ، وعادةً ما يقوم المعتقلون بعمل مسرحيات يكتب نصها أحدهم أو يشترك فيها أكثر من واحد ، ويتم توفير مواد الديكور من أشياء الغرفة [31] ، ومن الطبيعى أن إدارة السجن لا تقبل بهذا النشاط الذى يمثل تحدياً لها ، واستهانة بها ، لكن المسرحيات والحفلات تقام ليلاً [32].

ويرى الباحث أن الأسرى تأثروا بالمرسحية كفن مع دخول التلفاز للسجون ، وخاصة ما كان يعرض على التلفزيون المصري والأردني ، ولم ينتشر هذا الفن " تمثيل وكتابة " كأحد أجناس أدب السجون بالشكل الكبير ، ولم يعرض إلا في الاحتفاليات والمناسبات والأمسيات وفي غالب الأحيان داخل الغرف ، ولقد برز عدد قليل من كتاب النصوص المسرحية قياساً بالألوان والأصناف الأخرى منهم " حسن عبد الله الذي كتب " طرقات على باب الأمل ، ومن مذكرات زيتونة ، واعلاميون في مهمة " ، و " مسرحية النفق ، وإبريق الذهب ، ورامى ومحكمة الذئاب " لوليد الهودلي ، وعدد قليل آخر من كتاب المسرح في السجون .

5- الخاطرة :

أبدع الأسرى في كتابة الخاطرة الأدبية كنثر أدبي صيغت فيه الكلمات ببلاغة وامتاز بكثرة المحسنات البديعية من صور واستعارات وتشبيه ، والتي تصنف أدبياً في موقع بين القصة القصيرة و الشعر الحر وهي ثلاث أنواع " الخاطرة الرومانسية ، والخطرة الوجدانية ، والخطرة الإنسانية " وكتب الأسرى في الثلاثة وأكثرها " الإنسانية " التي تركز على قيم الصداقة والأخلاق الفاضلة والتضحية والوطنية .

وعدد كبير من الأسرى من اهتموا بهذا اللون من الأدب ، وكانت لهم مجموعات من الخواطر كتبوها في عتبات الليل ، ول بعضهم البعض ، وخلال المراسلات ، والمسابقات ، والمجلات الأدبية ، وطبع منها ترانيم خلف القضبان لعبد الفتاح حمائل ، وإلى ولدي محمد للكاتب على جدة ، وخواطر من الزنزانة لمحمد عبد السلام وغيرهم [33].

6- الرسالة :

استطاع الأسرى الفلسطينيون في السبعينيات بعد الكثير من الخطوات النضالية بانتزاع حق مراسلة ذويهم عبر الصليب الأحمر الدولي ، ومن ثم عبر البريد الرسمي ، وبدأت الموافقة بحصر الرسالة بأقل من عشرة سطور ، ثم تطورت لتصل فرخ من الفلسكاب كبير الحجم أكثر أو أقل .

ومع مرور الوقت مع تطور الإمكانيات الأدبية للأسرى تحولت رسائل المعتقلين إلى أشبه بنصوص أدبية حملت مشاعرهم ، وعبرت عن أفكارهم ، خاصة وأنهم كانوا يلجأون إلى الأسلوب الأدبي وإلى الاستعارات والألغاز والتمويه على الرقيب ، لكن البعض كان يعتمد الأسلوب الأدبي ، بعد فتح المواهب والقدرات الأدبية خلف القضبان [34].

ولقد وصلت الرسالة إلى أعلى مراحل تطورها ، عندما تحولت من وسيلة إخبارية مباشرة تحمل السلامة إلى الأهل ، إلى نصوص أدبية راقية ، حيث أن بعض الرسائل صيغت على شكل قصائد شعرية ، أو خواطر أو قصص قصيرة ، أو نصوص أدبية مفتوحة ، خاصة عندما مزج وزواج مرسل الرسالة بين الخاص والعام ، أو عندما صقلت أقلام عدد لا بأس به من الأسرى وتطورت بشكل لافت ، وأصبح أصحابها يعبرون عما يجول في صدورهم أدباً [35].

كما وتمثل رسالة المعتقلين قيمة أدبية ونضالية وتاريخية ، يمكن من خلالها الوقوف على مراحل التجربة الإعتقالية وخصائصها ، والتعرف على ظروف ومستوى تطور المعتقلين ، لذلك فإن دراسة هذه الرسائل تشكل مهمة وطنية وتاريخية وأدبية في آن واحد ، ولقد شكلت الرسالة نافذة للمعتقل المناضل على أسرته ومجتمعه والحياة ، وصلت في سطورها وتعابيرها مضامين اجتماعية وسياسية وتربوية ونفسية وفكرية ، وارتقت من الجانب الإخباري إلى التحليلي ، وبعضها ارتقى إلى الإبداع ، وحصل بامتياز على درجة رفيعة في عالم الأدب والإبداع [36].

اختلف النقاد والمختصون في مكان الرسالة وإرفاقها بأدب السجون ، ويرى الباحث أنها تستحق بجدارة أن تكون في صدارة هذا اللون من إنتاجات وأدبيات الأسرى ، التي اهتم وحرص وتبارى

الأسرى وتألقوا في صياغتها وتراكيبها البلاغية والأدبية ، وقد أرفقوا على هامش سطورها بصور الورود والعصافير والرسومات والرموز الجمالية الأخرى .

7- الفن والغناء والموسيقى :

إهتم الأسرى بالفنون المرتبطة بأدب السجون ، وتم تلحين الكتابات الأدبية ، والقصائد الشعرية ، على صورة زجل وأناشيد وأغانى وطنية ، وكان للتراث الشعبى مكانة خاصة ومرموقة بين أسرى الثورة ، فالدبكة والزجل انتشرا فى كل السجون ، ولا يخلو سجن من مناضل أو أكثر لديه القدرة على تأليف الزجل العاطفى والسياسى ، كما كان المعتقلون ينظمون حفلات غنائية ، مرة واحدة أسبوعياً ، وتكون حفلات ممتعة وشيقة للجميع [37].

وفى العام 1984 كانت الاحتفالات فى السجون قد أخذت شكلاً جديداً ، فقد تضمنت الفقرات أغانى ودبكات شعبية ورفع للاعلام الفلسطينية [38] ، وغلب اللون الحزين على الأغانى والمواويل ليعكس الحجم المذهل المختزن فى أعماق الأسرى ، ويعكس توجعاً إنسانياً من الظلم الاجتماعى والقمع الإحتلالى ، والحرمانات اللانهائية ، وكثيراً ما كنت تجد الأغنية والنشيد الوطنى يتبع الموالم الحزين فى جدلية مميزة ، كان الأسير يفتح جرحه ثم يداويه ، غالباً ما كان المغنى الأسير يؤدي ما هو موجود من أغانى ومواويل ، لكنه أداء يحمل بصماته الخاصة ، وبعضهم ألف الأغنيات ذات الطابع الشعبى ، وبدرجة أكبر المواويل .

أشاعت الأمسيات الفنية المتواضعة الدفء فى طقس السجن البارد دوماً ، حيث الأغنيات والأشعار تحمل الأفئدة المعذبة إلى عالم آخر بدون قيود وبدون حرمان ، وتعالق فى هذه الأمسيات الضحكات كأنها تغسل ولو للحظات حزناً لا يفارق الواقع [39].

ولقد تركت زجليات الشهيد راجح السلفيتى خاصة تلك التى أنتجها داخل الأسوار الأثر العميق فى وجدان الأسرى ، وكانت عاملاً يفتدى به فى عملية إعادة صياغة التربية ، خاصة تلك القصائد التى تحض على استيعاب أسرار النضال والصبر على الشدائد [40].

وتتطبق هذه الصورة على سجن الأسيرات، حيث أن الأسيرات يقمن أيضاً بالأناشيد الوطنية وبصوت وطنى ثورى ، وكثيرة هى المرات التى يسمع فيها الزوار والمعتقلون المرضى فى مستشفى سجن الرملة أصوات المناضلات الأسيرات الملئء بالحماسة والمعبر عن حب الوطن والالتصاق بالقضية [41].

وأوجد المعتقلون لأنفسهم فضاءات جديدة ، فعلى سعيد الموسيقى سادت موسيقى الشبابية ، والمجوز ، والأرغول ، باعتبارها الأدوات الموسيقية الوحيدة التى كان يمكن للمعتقلين صنعها من أنابيب التمديدات الكهربائية المنتزعة من الجدران ، كم كان عذباً صوت شبابية أبو على الديراوى ، ومجوز أبو سلطان ، ودبكة أبو حامد الرفاتى ، وأغانى محمود البرغوثى التى كانت تذكرنا بالمرحوم نصرى شمس الدين [42].

" وفى العام 1985 صنع الفنان الأسير عونى الخروبى الذى تواجد فى سجن غزة وعسقلان ونفحة آلة الكمان الموسيقية ، من طاولة الزهر ، وكانت إدارة السجون تصادرها ، ويقوم بإعادة صناعتها ، وطالب الأسرى بإدخال الأدوات الموسيقية للسجون ، فسمحت فقط بإدخال الكمان فى سجن غزة ، والعود فى سجن نفحة للأسير الفنان المرحوم الخروبى ، الذى علم بعضهم : "

كالأسير مسعود الراعى ، والأسير معاذ الحنفى ، والأسير خالد مناع والأسير طارق أبو زهدية وآخرين تنافسوا فيما بينهم على تعلم العزف ، وقام الفنان الخروبى بتلحين أشعار الأسرى التى كتبوها داخل الاعتقال وتم ترديدها فى المناسبات والاحتفالات الوطنية فى السجون وفى الخارج من قبل الأسرى المحررين " [43] ، وهناك من كتب القصيدة المغناة فى السجن كماجد أبو شمالة ، وسليم الزريعى ، ومعاذ الحنفى ، وأحمد الشيبانى الملقب بالسنبلى أو العندليب ، وعرف عدد من الأسرى اللذين أسعدوا الأسرى بأصواتهم الجميلة فى المعتقلات كالأسير " سعيد سلمان

الملقب بأبى عرب " ، والأسير المرحوم نايف أبو عياش ، وأكرم حسن ، وجمعة النايه ، والمنشد المشهور رمزك العك ، ونصر يتايمه ، وحمودة صلاح ، ومصعب الهشلمون ، وآخرين .

رابعاً : سمات جمالية لأدب السجون:

يتميز أدب السجون بحيوية الانفعال، وصدق التجارب؛ كونه ينهل من مصدر المعاناة النابع من ثوار هانت عليهم أنفسهم فهبوا يحملونها على أكفهم ليقدموها أضاحي في سبيل تحذير كرامة الوطن وأهله [44].

وتميزت التجارب الأدبية بالالتزام فى السجون بالالتزام بالقيم ، والمبادئ ، والتناغم مع القضية ، فى تجاوز الهم الفردي إلى الهم الجمعي والعام ، "ومن أهم سمات أدب السجون :

1- العُمق: يمتاز "أدب السجون" بعمق التعبير فى الدلالة والمضمون، وفى الربط بين الفكرة والأسلوب.

2- الرمزية: غالباً ما يلجأ الكاتب إلى الرمز للتعبير عما يعتلج فى حناياه.

3- التصوير الفنى: كثيراً ما يلجأ الأديب إلى فرط عقود اللغة، وما حوت من جمان وجواهر، ليعيد تشكيل فكرته وشعوره فى قالب لغوي جديد، فتعطيك المقطوعات الأدبية لوحات رائقة، أو مشاهد صامتة، أو انعطافات على مشاهد حية مُفعمة بالحركة.

4- البلاغة: الصناعة البلاغية رائجة الاستخدام، كالكنائيات والاستعارات والتشبيهات والمجاز المرسل والمحسنات اللفظية والبيعية.

5- الاختزال: أي ضبط الفكرة التي تحتاج إلى فقرات طويلة فى فقرة صغيرة.

6- العاطفة المتأججة: فلا تكاد تجد مقطوعة متكلفة المبنى أو المعنى، وإنما منسجمة فى معناها ومبناها مع العاطفة التي تحكم القلب اللغوي المستخدم.

7- سعة الخيال: يلجأ الكاتب إلى الخيال فى الغالب لاستعارة الصور أو الأحداث، فتنفاعل الفكرة فى خياله مع صور إبداعية، بقلب لغوي خاص.

8- الحزن المشوب بالتحدي: فمسحة الحزن لا تكاد تفارق المقطوعات الأدبية على اختلاف موضوعاتها، حتى تلك التي أراد بها صياغة مساحة من الفرح، لا تكاد تخلو من ألم أو آهات أو دموع، فأفراحهم، أفضل ما نعبر عنها بالجراح الباسمة.

9- الثقافة الواسعة: حيث يهتم الأسرى بتنمية ذواتهم ومهاراتهم وقدراتهم [45]. فى نهاية الدراسة يجزم الباحث أن ما هو مجهول من ابداعات الأسرى الأدبية ، وما تم مصادرتة من قبل إدارة مصلحة السجون الاسرائيلية ، ومن لم يرَ النور بالطباعة بسبب القصور باتجاه أدب السجون لهو أكثر بكثير مما عرف وما نحاول ابرازه وجمعه .

وأن أدب الأسرى فيه ما ليس بغيره من مصداقية ، ومعانى انسانية ، وأنه يحمل مضامين مهنية ، وبلاغة إبداعية يجعله أقرب للمستمع والقارىء من غيره ، واستطاع أن يلفت انتباه المهتمين والأكاديميين والنقاد العالميين على سبيل المثال لا الحصر تناولت الدكتورة نادية هارلو الأستاذة فى جامعة تكساس الفن القصصى للمعتقلين الفلسطينيين ، وجاء اهتمامها فى إطار اهتمامها بالأدب المقوم على مستوى عالمى ، حيث جمعت فى دراسة مقارنة العديد من النماذج الإبداعية التي أنتجتها أقلام مقاومة انصهرت فى القضايا التحررية لشعوبها .

وليس غريباً أن يكون للأقلام الأدبية التي تعمدت في تجربة الاعتقال حصة لا بأس بها في إصدارات اتحاد الكتاب الفلسطينيين ، وفي الملاحق الأدبية والثقافية في الصحف والمجلات المحلية وحتى في الكتب المترجمة إلى لغات أجنبية مثل إصدار اتحاد الكتاب باللغة الانجليزية " نصوص قصة قصيرة " حيث مثل عدد المشاركين من الأدباء في هذا الإصدار اللذين تخرجوا من تجربة الاعتقال " 15 " من أصل " 44 " أي ما يقارب الثلث " [46] ، كما أن التجربة الثقافية والإبداعية في المعتقلات حققت انجازات لفتت انتباه عددا من الباحثين والدارسين والأكاديميين ، على المستوى الفلسطيني والعربي والدولي [47] .

.....
ملاحظة / يحتفظ الباحث بمصادر الدراسة لحفظ حقوق الملكية / ولكونها أحد مباحث رسالة الدكتوراة يمنع الاقتباس دون ذكر المرجع - والأفضل - بالمعلومات التالية : رافت خليل حمدونة : الجوانب الإبداعية في تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية الأسيرة في الفترة ما بين 1985 إلى 2015 ، القاهرة ، رسالة مقدمة للحصول على درجة الدكتوراة في قسم العلوم السياسية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، 2015 ، ص 164 – 177 .

دراسات سابقة للباحث :

(دراسة / الإضراب المفتوح عن الطعام (التعريف ، والجذور ، والقانون ، والأنواع

[id=27436&http://alasra.ps/ar//index.php?act=post](http://alasra.ps/ar//index.php?act=post&id=27436)

دراسة / أطفال النطف المهرية ثورة إنسانية في وجه السجان

[id=27528&http://alasra.ps/ar//index.php?act=post](http://alasra.ps/ar//index.php?act=post&id=27528)

دراسة / التجربة الديمقراطية للأسرى الفلسطينيين في السجون الاسرائيلية

[id=27819&http://alasra.ps/ar//index.php?act=post](http://alasra.ps/ar//index.php?act=post&id=27819)

دراسة / الأوضاع التعليمية للأسرى الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية

[id=27754&http://alasra.ps/ar//index.php?act=post](http://alasra.ps/ar//index.php?act=post&id=27754)

دراسة / المسيرة الثقافية للأسرى الفلسطينيين في السجون الاسرائيلية

[id=27717&http://alasra.ps/ar//index.php?act=post](http://alasra.ps/ar//index.php?act=post&id=27717)

دراسة / أدب السجون التعريف والمميزات

[id=27645&http://alasra.ps/ar//index.php?act=post](http://alasra.ps/ar//index.php?act=post&id=27645)

دراسة / وثيقة الأسرى لا زالت مفتاح المصالحة الفلسطينية وانتهاء الإنقسام

[id=27577&http://alasra.ps/ar//index.php?act=post](http://alasra.ps/ar//index.php?act=post&id=27577)

دراسة / عوامل ابداع الأسرى الفلسطينيين في السجون الاسرائيلية

[id=27433&http://alasra.ps/ar//index.php?act=post](http://alasra.ps/ar//index.php?act=post&id=27433)

دراسة / اليات اعتقالية لتطوير منظومة الإبداع للأسرى الفلسطينيين في السجون الاسرائيلية

[id=27967&http://alasra.ps/ar//index.php?act=post](http://alasra.ps/ar//index.php?act=post&id=27967)

دراسة / الوسائل النضالية للأسرى الفلسطينيين في مواجهة السجان الاسرائيلي

[id=27875&http://alasra.ps/ar//index.php?act=post](http://alasra.ps/ar//index.php?act=post&id=27875)

دراسة / عن الوضع القانوني ومحطات الاعتقال والتعذيب للأسرى الفلسطينيين في السجون

[id=28106&http://alasra.ps/ar//index.php?act=post](http://alasra.ps/ar//index.php?act=post&id=28106)

تعريف بالباحث رافت حمدونة :

باحث مختص في قضايا الأسرى والشأن الاسرائيلي ، ومدرب ممارس محترف في التنمية البشرية ، عضو في نقابة الصحفيين الفلسطينيين والدوليين ، حصل على شهادة البكالوريوس في علم الاجتماع والعلوم الإنسانية من الجامعة المفتوحة في إسرائيل خلال فترة اعتقاله التي دامت 15 عام متواصلة ، وحاصل على درجة الماجستير في الدراسات الإقليمية مسار " دراسات إسرائيلية " وبتقدير ممتاز

من جامعة القدس / أبو ديس، وطالب دكتوراة في مجال العلوم السياسية بمعهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ، من مؤلفاته داخل الاعتقال “ نجوم فوق الجبين – عاشق من جنين – الشتات – ما بين السجن والمنفى حتى الشهادة – قلبي والمخيم – لن يموت الحلم – صرخة من أعماق الذاكرة “ ، يعمل مديرًا عامًا بهيئة شئون الأسرى والمحربين ، ومدير مركز الأسرى للدراسات والأبحاث الإسرائيلية ، ومحاضر غير متفرغ في الجامعات الفلسطينية ، ومقدم برامج إذاعية وتلفزيونية .

للمراسلة على اميل :

rafathamdona@yahoo.com